لجنة التأليف والترجمة والنشر

# فجر الإسلام

يبحث عن الحياة العقلية فى صدر الإسلام إلى آخر الدولة الأموية

تأليف

أحمد أمين

الناشر دار الكتاب العربي
بيروت - لبنان

WWW.ATHAREBARTAR.COM

# مقدمة الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله .

ظهرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب نحو أول سنة ١٩٢٩ ، وكان ما لقيته من الباحثين من أهل العربية والمستشرقين أكبر مشجع لى علمىّ ، فقد نقدوه وقرظوه ، وانتفعت بما أبدوه من آراء قيمة فى نقده وتحليله ، أذكر منهم الأستاذ مصطفى عبد الرازق ، والدكتور عبد الوهاب عزام ، والدكتور برجستراسر ، والدكتور شادة ، والأستاذ مرسيه ، والأستاذ جعفرى .

وكنت أود أن أتوسع فى بعض فصوله وأزيد فيه فصولاً لم تكن ، وأحكى آراء الباحثين من المستشرقين فيما ذهبوا إليه أخيراً ، ولكن اشتغالى فى إخراج « ضحى الإسلام » منعنى من تحقيق كل رغبتى فحققت من ذلك ما استطعت ، وزدت فى هذه الطبعة بعض أمثلة عثرت عليها أثناء قراءتى ، وأوضحت بعض ما غمض ، وصححت ما عثرت عليه من خطأ فى الطبع أو فى الرأى ، والله أسأل أن ينفع به كما نفع بأصله .

يناير ١٩٣٣

أحمد أمين

WWW.ATHAREBARTAR.COM

# مقدمة الطبعة الأولى

## للدكتور طه حسين

فى نفوس الناس الآن من الأدب العربى ودرسه صورة جديدة مخالفة لما كان فى نفوسهم منذ سنين ، ولكنها صورة غامضة على جدتها وطرافتها ، أو هى غامضة لجدتها وطرافتها ؛ فالناس جميعاً لا يطمئنون الآن إلى ما كانوا يطمئنون إليه من أن الأديب يجب أن يروى طائفة جيدة من مختار المنثور والمنظوم ، وأن يلم بما يتصل بهذا المنثور والمنظوم من لغة وتاريخ وقصص ونسب لشرحه وتفسيره ونقده ليكون أديباً ، وإنما هم يطلبون إلى الأديب شيئاً آخر : يطلبون إليه أن يكون مرآة صافية وضاءة أمينة لخير ما فى عصره إن كان أديبا منشئاً وأن يكون مرآة صافية وضاءة أمنية للأدب الذى يريد درسه إن كان أديباً واصفاً . وليس المختار من المنظوم والمنثور إلا صوراً لألوان من حياة الأفراد والجماعات ، فيها القوى وفيها الضعيف ، فيها الجيد وفيها الردىء ، فيها الرضى وفيها البغيض . والناس لا يريدون الآن أن يقنعوا بهذه الصور يحفظونها ويستظهرونها ، ويلقون عليها أبصارهم متعجلين لا يحققون ولا ينعمون ، وإنما يريدون أن يتعرفوا ما وراء هـذه الصور ويتعمقوا حقائقها ويعرفوا — إلى أقصى حدود المعرفة — دقائق هذه الحياة النفسية التى اضطربت بها الأفراد والجماعات فأنشأت ما أنشأت من نثر ونظم .

الناس يحسون ذلك ويشعرون به ، ثم يؤدون حسهم وشعورهم بهذه الشكوى المتصلة من ضعف الأدب العربى وفساده ، وقصوره عن أن يثبت للآداب الأجنبية ، وبهذا الازدراء المتصل بالأدباء وأساتذة الأدب ، وما ينتج أولئك وهؤلاء من أدب إنشائى أو وصفى ، وبانصراف كثير منهم عن الأدب العربى قديمه وحديثه إلى الأدب الأجنبى يفتنون به ، ويتهالكون عليه ، ويؤثرونه لا يعدلون به شيئاً .

ولكنك تسألهم : ماذا يريدون من الأدب العربى ليقرأوه ويحبوه ؟ وماذا يريدون من الأديب العربى ليسمعوا له ويصغوا إليه ؟ فيجيبونك أجوبة غامضة ملتوية لا تكاد

WWW.ATHAREBARTAR.COM

تحقق شيئاً مما يجدون فى أنفسهم إلا أنهم يكرهون هذا الأدب العربى ويتبرمون به ، ويرونه بعيداً كل البعد عن أن برضى حاجات نفوسهم ، ويحقق ما لعقولهم من مطامع .

وقد أحس أساتذة الأدب أنفسهم نفور الناس من أدبهم ، وانصرافهم عنه منذ أول هذا القرن ، فجدوا فى أن يلائموا بين أدبهم وبين عقول الناس ، وحاولوا التجديد والإصلاح ، فنشأ فى مصر ما سموه تاريخ الأدب . وتغير اسم الأدب نفسه بعض الشىء فسمى فى الكتب والبرامج الرسمية هذا الاسم الجديد الغريب بعض الشىء : أدب اللغة ، أو آداب اللغة . ولكن أساتذة الأدب لم يفهموا عن الناس شكواهم على وجهها ، فلم يتصوروا التجديد فى درس الأدب على وجهه ، وخيل إليهم أن التجديد فى درس الأدب إنما يكون إذا صيغت كتب الأدب العربى صيغة كتب الأدب الأجنبى ، وأرخ الأدب العربى على نحو ما يؤرخ الأدب الأجنبى ، فقسم إلى عصور ، وترجم فى كل عصر لطائفة من الكتاب والشعراء النابهين . وأشير — فى إيجاز — إلى ما يسمونه المؤثرات الأدبية أو العلمية التى تتميز بها العصور بعضها من بعض ، واستحدثت ألفاظ جديدة هى فى حقيقة الأمر ترجمة لألفاظ أجنبية ، لا تدل فى أدبنا العربى على شىء ؛ وعلى هذا النحو نشأ فى مصر نوع من الأدب جديد ، لا هو بالعربى القديم ، ولا هو بالأجنبى الحديث ، وإنما هو شىء بين قصر عن ذاك ، ولم يبلغ هذا . وعشنا على هذا الأدب حيناً ، ولكن شكوى الناس لم تنقطع ، ونفورهم من الأدب العربى وانصرافهم إلى الآداب الأجنبية لم يزدادا إلا شدة وإلحاحاً ، وكان طبيعياً أن تتصل هذه الشكوى ، وكان طبيعياً أن يشتد هذا النفور والانصراف ، لأن رقى الحياة العقلية فى مصر اطرد منذ أول هذا القرن ، ولأن اتصال هذه الحياة العقلية المصرية بالحياة الأوربية اشتد واستوثقت عراه ، بينما لم يطرد رقى الأدب العربى ولم يتصل بالأدب الأجنبى ، ولم يزد أساتذة الأدب فى هذه الأيام على ما وضعوه من صور جديدة فى أول القرن ، فمضى الناس قدماً وتخلف الأدباء .

وقام بين الناس وأساتذة الأدب سور من اليأس عميق صفيق حال بينهم وبين أن يفهم بعضهم بعضاً ، فأما الناس فاستيأس أكثرهم من الأدب العربى ، وأخذوا يروضون أنفسهم على الاستغناء عنه والاكتفاء بالآداب الأجنبية ، وأما أساتذة الأدب فاستيأسوا

WWW.ATHAREBARTAR.COM

من الناس واستيقنوا أن الحضارة الأجنبية قد أفسدت العقول والقلوب ، وعكفوا على أدبهم هذا المشوه يعيدونه ويبدئونه ، ثم يعيدونه ويبدئونه ويزجونه زجاً فى نفوس الطلاب والتلاميذ ، لا يحفلون بما يتركون فى نفوس هؤلاء الطلاب والتلاميذ من أثر ، ولا يحفلون بما يستبقون لهذا الأدب العربى من حياة ؛ ومع ذلك فليس الأدب العربى أقل حياة من الآداب الأجنبية مهما تكن ، وليس الأدب العربى أقل صلاحاً للبقاء واستحقاقاً للعناية الخصبة والدرس المنتج من الآداب الأجنبية مهما تكن . وكل عيب الأدب العربى أنه مجهول لا يحسنه أصحابه ولا يتعمقونه . وكل ما يحول بين الأدب العربى وبين الحياة والخصب والنفع أن مناهج البحث عنه والاستقصاء له سيئة رديئة لم تنظم بعد ، ولم يتناولها الإصلاح فى مصر كما تناول إصلاح المناهج العلمية الأخرى ؛ فالناس يدرسون الطبيعة والكيمياء وغيرهما من العلوم التجريبية درساً صحيحاً مستقيم المناهج كما تدرس فى أوروبا ، ولكنهم لم يوفقوا بعد إلى هذا الحظ من الشجاعة الذى يكفى لأن يتصور الأدب كما تتصور العلوم ؛ ولأن يدرس الأدب كما تدرس العلوم . ويقيننا أنه لو تغير تصور الناس للأدب وتغيرت مناهجهم لاستقصائه والبحث عنه لتغير الأدب نفسه ، ولكان درسه فى مصر منتجا قيما ، كما أن درس العلوم التجريبية فيها منتج قيم .

على هذا النحو من الاستعداد أقبل زملائى ، وأقبلت على درس الأدب العربى فى الجامعة حين كلفنا هذا الدرس منذ سنين ، وكنا نحدث أنفسنا بأننا نحاول تجربة شاقة ، إن تفلح فقد استطعنا أن نحيى الأدب العربى ونبعث فيه روحا جديداً يمكنه من النمو والنهوض والتسلط على عقول الناس وقلوبهم ، والتعبير عن أهوائهم وميولهم ، والأخذ بحظه من الحياة القوية الغنية بين الآداب القائمة ، وإن لم تفلح فلم يضع الوقت ولم تذهب الجهود عبثا ، وإنما هى محاولة يمكن الانصراف عنها إلى محاولة أخرى ، وطريق يمكن العدول عنها إلى طريق أخرى ، كما يفعل كل عالم مؤمن بعلمه ، جاد فى العناية به ، وكنا مؤمنين بالأدب العربى ، وكنا جادين فى العناية به ، وكنا مخلصين فى هذه التجربة ، لا نحفل بما نجد فيها من مشقة ، ولا نفتر أمام ما يعترضنا فيها من عقبة ، وكنا نجد فى هذه المشقات والعقبات وفى تذليلها والقدرة على اجتيازها لذة تدفعنا إلى العمل وتحثنا على

WWW.ATHAREBARTAR.COM

المضى فيه ، وكنا نجد من استعداد الطلاب وتفتح نفوسهم لهذا الأدب العربى ما يضاعف هذه اللذة ويشد من عزائمنا للمضى فيما نحن بسبيله ، وكنا كلما خطونا خطوة أحسسنا أن . أقدامنا لاتزداد إلا ثباتاً ، وأن الطريق تنبسط أمامنا مستقيمة واضحة الأعلام ، ويخيل إلينا أن قد قطعنا من هذه الطريق مرحلة يحسن أن نقف عندها بعض الشىء ، ويحسن أن نظهر الناس على ما وجدنا فيها .

على أننا لم نقطع هذه المرحلة فى سهولة أو يسر ، وإنما وجدنا أمامنا طائفة ضخمة من الأنقاض ، بذلنا جهداً غير قليل فى إزالتها لتخلص الطريق لنا ، وتستقيم أمامنا ، وكثير من هذه الأنقاض كان فى نفوسنا ، فكم تراكمت فيها تربيتنا الأولى وكم ترك فيها تعليمنا الأول ، وكم حفظنا من أشياء لم يكن لنا بد من أن نخلص منها ونتخفف من أثقالها ، وننبذها على شىء من الألم والحزن كان يخالج نفوسنا ، وأى شىء آلم للنفس وأثقل عليها من هذا الجهد الذى يفرق بينهما وبين ما أحبت وألفت منذ عرفت البحث والتفكير ؟

وكثير من هذه الأنقاض لم يكن فى نفوسنا ، ولكنه كان فى نفوس الناس ، وكان فى الكتب ، ولم يكن جهدنا فى إزالة تلك الأنقاض الخارجية أقل من جهدنا فى إزالة تلك الأنقاض الداخلية ، إن صح هذا التعبير .

ومهما يكن من شىء فقد يخيل إلينا أن جهودنا لم تذهب عبثاً ، ولم تمض سدى . وإنا نستطيع أن نظهر الناس من القرن الأول للهجرة على صورة جديدة ، إلا نكون قد وفقنا إلى إتقانها وتحديدها من جميع أقطارها فقد وفقنا إلى أن نظهر منها المقدار الذى يمكن غيرنا من الوصول إلى حيث لم نصل والانتهاء إلى ما لم ننته إليه .

والعلم لا يعرف الكلمة الأخيرة فى مسألة من مسائله ، وإنما حقائقه كلها إيضافية موقوتة ، لها قيمتها حتى يتكشف البحث عما يزيل هـذه القيمة أو يغيرها . ونحن لا نزعم لصورتنا هاته التى نعرضها من القرن الأول للهجرة أنها الصورة الأخيرة ، وإنما نزعم أنها الصورة التى انتهى إليها بحثنا على ما بذلنا فيه من جهد ، وما اصطنعنا فيه من دقة ، وما تحرينا فيه من إنصاف ، وقد ينكشف بحثنا وبحث غيرنا عما يغير هذه الصورة كلها أو بعضها ، فإن يكن ذلك فنحن أشد الناس به اغتباطا وله ابتهاجاً ؛ ذلك أنا

WWW.ATHAREBARTAR.COM

لا نبغى إلا الحق من حيث هو ؛ والحق لم يوقف على فريق من الناس دون فريق ، ولم يقصر على عصر من عصور التاريخ دون عصر .

ولكن ما هذه الصورة التى نريد أن نعرضها على الناس ، والتى نتحدث عنها فى غموض وإبهام ؟ كانت القاعدة التى اعتمدنا عليها فى البحث أن الأدب العربى كغيره من الآداب بل كغيره من كل ما يتصل بالحياة الإنسانية ، بل كغيرة من كل ما يصلح موضوعا للدرس فى هذا الكون ، شىء لا ينبغى أن ينظر إليه على أنه منقطع الصلة عما حوله ، وإنما هو جزء من كل ، وليس إلى معرفة الجزء سبيل إذا لم يعرف الكل ، أو إذا لم يعرف ما يحيط به من الأجزاء الأخرى على أقل تقدير ، وإذن فلا ينبغى أن نقف جهودنا على درس الشعر والنثر وحدهما ، وتعرف ما لهما من قيمة فنية ، وإنما ينبغى أن يدرس الشعر والنثر من حيث هما مرآة لحياة الأمة العربية فى طور من أطوارها ، وإذن فلا بد من أن تعرف الأمة العربية فى هذا الطور معرفة واسعة عميقة واضحة ، تعرف فى حياتها الخاصة بينها وبين نفسها ، وتعرف فى حياتها الخارجية بينها وبين الأمم التى اتصلت بها ، ولا بد من أن تعرف حياتها الخارجية والداخلية معرفة دقيقة مفصلة إلى أبعد حد يمكن أن تصل إليه الدقة والتفصيل . وعلى هذا قسمنا بحثنا إلى ثلاثة أقسام : الأولى الحياة العقلية للأمة العربية فى القرن الأول للهجرة ؛ الثانى الحياة السياسية لهذه الأمة العربية فى هذا القرن ؛ الثالث حياتها الأدبية . وكل قسم من هذه الأقسام معقد شديد التعقيد ، ملتو كثير الالتواء ، فلم تكن الأمة العربية إبان القرن الأول للهجرة تحيا حياة عقلية يسيرة سهلة كما يظن الناس ، وإنما كانت حياتها العقلية خلاصة معقدة لطائفة كثيرة من العناصر اشتبكت وتداخل بعضها فى بعض حتى نشأ عنها هذا المزاج الذى نراه أيام بنى أمية وما رأيك فى حياة عقلية للعرب ، تجد فيها أثر الحياة الجاهلية وهو كثير بعيد ، وتجد فيها أثر الإسلام وهو مركب غير بسيط ، وتجد فيها أثر المسيحية وفيها السامى واليونانى ، وتجد فيها أثر المجوسية الفارسية ، كما تجد فيها أثر الديانات الهندية على اختلافها ، وكما تجد فيها أثر الحضارات المختلفة لكل هذه الأمم التى ذكرنا أسماءها ؛

WWW.ATHAREBARTAR.COM

ولو أننا كنا نريد التمويه على الناس والعبث بالعقول لأشرنا إلى هذا فى شىء من الإيجاز اللبق ، مكتفين بالمثل والشاهد نرويه رواية ونثبته على علاته فى غير تحقيق ولا تمحيص ، ولكننا لم نرد تمويهاً ولا عبثاً ، وإنما أردنا أن نرضى ضمائرنا أولا وحاجة الناس ثانياً ، فأخذنا أنفسنا أو بعبارة أصح أخذ زميلنا الأستاذ « أحمد أمين » نفسه بأن يحلل هذه الحياة العقلية العربية تحليلاً ليس أقل دقة واستقصاء من تحليل صاحب الكيمياء فى معمله . نعم وأخذ زميلنا نفسه بأن يرد هذه الحياة العقلية العربية ما استطاع إلى عناصرها المختلفة المكونة لها ، وبأن يعرف إلى أى حد امتزجت هذه العناصر وتداخلت ، وما مقادير هذه العناصر فى هذا المزاج العام ؟ ما مقدار العنصر الجاهلى ، وما مقدار العنصر الفارسى ، وما مقدار العنصر اليهودى ، وما مقدار العنصر اليونانى ؟ وما طبيعة هذه العناصر نفسها ، وما العناصر المختلفة التى كونت كل واحد منها ؟ ثم بعد هذا كله : ما المزاج العربى الذى خرج من تفاعل هذه العناصر المختلفة فظهر فى الآداب العربية كما نراه فى شعر الشعراء ، وخطب الخطباء ، وعلوم العلماء ، وأمثال الناس فى أحاديثهم العامة والخاصة ؟

* * *

ولقد أحب أن أتحلل من هذه القيود التى يأخذ بها الإنسان نفسه حينما يتحدث عن أثر من آثاره فيتكلف التواضع ، ويلتزم القصد فلا يتمدح ولا يثنى ، أريد أن أتحلل من هذه القيود لأشهد بأن زميلى « أحمد أمين » قد نهض بهذا العبء من درس الحياة العقلية العربية كأحسن ما ينهض الرجل ذو الضمير العلمى الحى بعبء من الأعباء . نعم أريد أن أتحلل من هذه القيود فأشهد بأن زميلى « أحمد أمين » قد استطاع أن يكشف لنا ببحثه هذا عن رجل لم نكن نقدر أن نراه ، فقد كنا نعرف له كفايته ومقدرته كعالم أديب ، جد حتى تثقف بالثقافة الأجنبية الأوربية ، ولكنا لم نكن نقدر أن يكون قد أخذ من هذه الثقافة بأدق حظ وأقربه إلى الإتقان والكمال ؛ فأحسن العلم بمناهجها والاستعمال لهذه المناهج ، كما أحسن العلم بمناهج القدماء فى الفقه وعلوم الدين والاستعمال لهذه المناهج : ولست أخفى أنى لم أكن أعرف حداً لهذا الدهش الذى كنت أجده

WWW.ATHAREBARTAR.COM

حين أرى « أحمد أمين » يتصرف فى المسائل الأدبية والفلسفية واللغوية بقدم ثابتة ويد صناع وعقل يعرف كيف يفكر ؛ وكيف ينتقل من قضية إلى قضية ، ومن مقدمة إلى نتيجة ، وكيف يضع الأشياء بعد ذلك كله فى نصابها معتدلا أحسن اعتدال لا يعرف التقصير ولا يعرف الإسراف .

نعم أريد أن أتحلل من هذه القيود وأن أثنى على « أحمد أمين » ومهما أفعل من ذلك فلن يكون ثنائى شيئاً إلى جانب هذا الأثر الذى سيتركه فى نفوس الناس بحثه الذى أقدمه إلى الجمهور سعيداً مغتبطاً بأنه أول ما يقع فى أيدى الناس من كتاب « فجر الإسلام » .

أخذ أحمد أمين نفسه بما رأيت من مناهج البحث فى دروس الحياة العقلية للأمة العربية إبان القرن الأول للهجرة ، فانتهى إلى نتيجتين كلتاهما قيمة حقا : الأولى أنه أظهر هذه الحياة كما كانت ، معقدة ملتوية ولكنها قوية أشد قوة ممكنة ، خصبة أشد خصب ممكن ، بعيدة كل البعد عما كان يظن الناس من هذه السذاجة الغليظة الجافة .

الثانية أنه وصل بين الثقافة الأدبية والثقافة الدينية والفلسفية وصلاً متيناً لن يتعرض منذ الآن لضعف أو وهن ، فقد كان الناس يعلمون أن للدين والفلسفة أثراً فى الشعر والنثر ، ولكنهم لم يكونوا يزيدون على هذه القضية العامة . أما الآن فقد استطاع « أحمد أمين » أن يضع أيدينا على هذه الآثار القوية الخالدة التى يتركها الدين والفلسفة والأدب ، وأصبح كتابه وسيلة قيمة إلى أن تتصل الحياة الدينية الإسلامية فى وضوح وجلاء وقوة إلى نفوس الشبان الذين يدرسون الأدب العربى فى الجامعة أو فى غيرها من معاهد العلم العالى ومن ذا الذى كان يقدر أن سيصل شبابنا إلى تعمق الفقه والتفسير والحديث والتوحيد وأثرها كلها فى الأدب العربى ؟

إن كان الشبان ليسمعون هذه الألفاظ فيأخذهم شىء من الوجوم والازدراء ، أما الآن فسيقرأون وسيشوقهم ما يقرأون ، وسيحرصون الحرص كله على التزيد من البحث والإنعام فى القراءة والدرس .

WWW.ATHAREBARTAR.COM

وأنا زعيم وسعيد بأن الشبان سيكثرون من قراءة القرآن ، وسيكثرون النظر فى كتب الحديث ، وسينعمون البحث عن مسائل التوحيد ، وليس هذا بالشىء اليسير لا بالقياس إلى هذه العلوم نفسها ، ولا بالقياس إلى الأدب العربى الخالص : سيستفيد الأدب من هذا الكتاب فائدة جديدة ، هى اشتداد الصلة بينه وبين هذه الثقافات المختلفة ، وستستفيد هذه الثقافات نفسها لأنها ستبلغ بهذا الكتاب بيئات لم تكن تبلغها من قبل .

* * *

وليست الحياة السياسية للعرب إبان القرن الأول بأقل تعقيداً من الحياة العقلية ، فللعرب فى هذا القرن سياسة خارجية دقيقة عويصة ، ولهم فى هذا القرن سياسة داخلية مشتبكة الأطراف متشعبة الأنحاء : وكلتا السياستين متأثرة بمؤثرات منها العربى ومنها الأجنبى ، منها ما كان قبل الإسلام ومنها ما طرأ بعد الإسلام ، وليست حاجة هذه الحياة السياسية إلى العناية والتحليل بأقل من حاجة الحياة العقلية ، وسيرى الذين يقرأون كتاب الأستاذ « عبد الحميد العبادى » أن بلاءه فى هذا البحث خليق بما البلاء صاحبه « أحمد أمين » من حمد وثناء .

* * *

والحياة الأدبية هى الخلاصة الفنية ، وهى فى الوقت نفسه المرآة لكل ما اضطربت به الأمة العربية فى حياتها العقلية والسياسية ، وهى فى الوقت نفسه الخلاصة والمرآة لألوان أخرى من الحياة لا تمس السياسة ولا تمس التفكير العقلى الخالص ، وهى كالحياة السياسية والعقلية محتاجة إلى العناية والتحليل الدقيق ، وهى فى الوقت نفسه محتاجة إلى نوع آخر من الدرس الفنى واللغوى . وأنا أرجو أن أنهض بعبء هذا البحث كما نهض صاحباى بعبء البحثين الذين عالجاهما .

ومهما يكن من شىء فنحن نقدم إلى القراء كتاب « فجر الإسلام » راجين ألا يفرغوا من قراءة أحد أقسامه حتى يظهر لهم قسمه الثانى ثم قسمه الثالث ، راجين بنوع خاص أن يكون ظهور هذا الكتاب مؤرخاً لعصر جديد يدرس فيه الأدب العربى هذا الدرس

WWW.ATHAREBARTAR.COM